معبد أي – أنّا في نفر (عصر فجر السلالات)
دراسة و تحليل

الدكتور محمد طه الاعظمي
استاذ مساعد في قسم الآثار في كلية الآداب / جامعة بغداد

المقدمة :

تُعد مدينة نفر واحدة من أمهات المدن العراقية القديمة ، علما أن أهميتها هذه لم تأت بسبب نفوذ سلالة حاكمة فيها أو لموقعها المتميز او لأي سبب سياسي – أقتصادي آخر ، بل تولدت أهميتها لكونها واحدة من المراكز الدينية – الثقافية المهمة لدى السومريين .

كانت نفر مركزا لعبادة أحد أهم معبودات العراقيين القدماء المعروف بأسم الآله أنليل سيد الأجواء خالق البشر ومقرر مصائرهم وهو الذي حاول افناءهم بالطوفان كما ورد ذلك في ادبياتهم . ولأهمية المدينة الدينية فقد كان من متطلبات الحصول على لقب الملوكية في العهود السومرية أن تكون هذه المدينة ضمن المدن التي يسيطر عليها هذا الملك ليأخذ من أنليل لقب الملوكية و شاراتها .

وتذكر المصادر المسمارية المختلفة أن ملوك وأمراء بلاد الرافدين كانوا يتنافسون في تقديم القرابين والهدايا لمعبد أنليل المعروف بأسم أي كور كما تنافسوا في أعادة بناء هذا المعبد وفي تجديده على الدوام ، لذلك فقد أصبح لكهنة المدينة حضوة ونفوذ لدى سكان بلاد الرافدين ، وتفرغوا في مدينتهم لشؤون العبادة والاهتمام بالعلوم والمعارف والآداب التي كانت سائدة آنذاك ، وخلفوا في هذه المدينة آلاف مؤلفة من الرقم الطينية المدونة بشتى صنوف المعرفة .

الموقع :

تقع مدينة نفر التي تُعرف بقاياها حاليا بأسم نُفر على بُعد ١٠ كيلومترا تقريبا من عفك و٣٥ كيلومترا شمال شرق مدينة الديوانية مركز محافظة القادسية. كان يخترق المدينة في عصورها المزدهرة فرع رئيسي من فروع نهر الفرات يشطرها الى قسمين خصص أحدهما وهو الجانب الشرقي لبناء زقورتها وأهم معابدها وأبنيتها بينما أنتشرت في القسم الغربي حارات المدينة وأحياؤها السكنية . أما معبد اي – أنّا فيقع عند الجانب الشرقي من المدينة على بُعد ٩٠مترا تقريبا جنوب غربي الزقورة [١] .

طبقات المعبد :

ان من الظواهر البارزة في عمارة المباني الدينية في العراق القديم هو محاولة تجديد وإعادة إعمار مباني المعابد بفترات متباينة و كلما دعت الحاجة الى ذلك أو أن يعار الى تسوية المبنى برمته و تشييد معبد آخر جديد فوقه أو بالقرب منه و بخاصة عندما تتقوض الجدران القديمة و يصبح بالامكان أعادة أعمار بسبب الحاجة الى تغيير مخططه أو توسيعه عند تبدل السلالات الحاكمة أوعندما يحدث تغيير ما في المعتقدات والطقوس الدينية . وفي جميع الاحوال فأن مواضع المعابد تبقى على الدوام ذات قدسية خاصة ولا تستخدم إلا للأغراض الدينية وبخاصة مواضع المعابد الرئيسية في المدن العراقية القديمة ، والامثلة على ذلك كثيرة منها معبد مدينة أريدو بطبقاته الثمانية عشر وحارة المعابد في مدينة الوركاء ومعابد سين في خفاجي بطبقاته العشرة ومعبد شمش في سبار وغيرها من المعابد .

وفي ما يخص معبد أي ـ أنّا (E-anna) في نفر فاننا نلمس هذه الظاهرة بوضوح حيث بنيت نتائج التنقيبات فيه وجود اكثر من عشرة معابد رئيسية الواحدة فوق الأُخرى بفترات زمنية متباينة بلغ عدد طبقاتها ٢٣ طبقة ترتفع ما يقرب من ١٨مترا فوق مستوى سطح الارض وشغلت هذه المعابد فترة زمنية تزيد على ثلاثة آلاف سنة يعود أقدمها الى عصر الوركاء بحدود (٣٥٠٠ ـــ ٣١٠٠ ق.م) وصولا الى العصر الفرثي والساساني بحدود عام ٢٢٥ م [٢] .

وتحتل الطبقات العائدة الى عصر فجر السلالات ابتداء من الطبقة الحادية عشرة الى الطبقة الخامسة السفلى ، الا ان أهم تلك الطبقات وأوسعها هي الطبقات السابعة والثامنة اللتان تعودان الى الدور الثاني والثالث من عصر فجر السلالات ومع ان معبد أي ــ أنا في كلا الطبقين كان بمخطط متشابه تقريبا الا ان معبد الطبقة السابقة هو الأكبر والأوسع والأكثر تنظيما .

شُيّد معبد الطبقة الثامنة (عصر فجر السلالات الثاني) فوق مصطبة اصطناعية من اللبن جعلته بمستوى أعلى من السابق وشكّلت في نفس الوقت حاجزا وحدا فاصلا بين الطبقات القديمة للمعبد وبين الطبقات التي تعلوها وهذه الفعالية ربما توحي الى تغيير في المفاهيم والطقوس الدينية في فترة عصر فجر السلالات الثاني ، أو هي محاولة لاضفاء قدسية وتبجيل أكثر عليه يجعله بمستوى أعلى من مستوى بقية الابنية المحيطة به وهي ظاهرة شائعة في عمارة المباني الدينية في العراق القديم .

مخطط المعبد :

كما ذكرنا سابقا فان مخططي المعبدين الثامن و السابع متشابهان تقريبا لذا سنتناول في بحثنا هذا معبد الطبقة السابعة (عصر فجر السلالات الثاني والثالث) الأكبر بين هذين المعبدين يحيط بالمعبد من جهتيه الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية ، شارع يعزله عن البنايات المحيطة به .

اما المعبد فقد شُيّد من اللبن المستوي المحدب الذي انتشر استخدامه في هذين العصرين بالذات بلغ سمك جدرانه قرابة المتر الواحد وقد بلطت واجهاته بطبقة سميكة من الطين (انظر شكل ١) .

المعبد يتميز باستطالته وضيقه وهو بمخطط غير منتظم يمتد من الشمال الغربي والى الجنوب الشرقي بطول يقرب من ٨٢,٥ مترا وأقصى عرض له بلغ قرابة ٢٤ مترا . فتح المدخل الرئيسي للمعبد عند الضلع الشمالي الغربي يفضي الى ساحة مكشوفة (٧,٥ X ١٣,٥ مترا) تتميز بثخن جدرانها الذي يقرب من المتر الواحد يحليها من الداخل دخلات مزدوجة صغيرة ، و يقابل المدخل الرئيسي

هذا من الجهة الاخرى من الساحة مدخل آخر يوصل اليه عبر سلم متعدد الدرجات يفضي الى غرفة صغيرة ومنها الى ساحة اخرى كبيرة مكشوفة يبدو من وجود السلم ان أرضيتها كانت بمستوى أعلى من سابقتها .

وفي نهاية هذه الساحة مدخل يفضي الى مجموعة من الحجرات الصغيرة تنتشر حول ساحة مربعة صغيرة (طول ضلعها ٧,٢٠ مترا) . يلي هذا الجناح من المعبد ساحة واسعة يطل عليها من جانبها الشمالي الغربي والجنوبي الشرقي اعمدة كبيرة قطر كل واحد منها قرابة (١١٠ سم) بنيت بقطع خاصة من اللبن ، سطح اللبنة بشكل أقرب الى البيضوي صفت بهيئة حلقتين متداخلتين و ملئ الفراغ وسط العمود بالطين ثم غلفت واجهة العمود بطبقة سميكة من الطين ايضا . وقد توزعت الاعمدة بواقع عمودين في كل جهة ، و يوحي لنا المكان الذي اقيمت فيه الاعمدة ان الغاية منها ان تحمل سقفا مستويا بشكل مظلة أو فناءا مسقفا على جانبي الساحة الواسعة المكشوفة . و يبدو ان هذه الاجنحة كانت تشكل الاقسام الخدمية او الادارية للمعبد حيث احتوت ساحاتها على العديد من الافران والمواقد وتوزعت حول درجاتها غرف صغيرة استخدمت كمخازن او لاغراض شخصية خاصة [٣] .

أما القسم الديني الأهم في المعبد فيقع في نهاية هذه الساحة وهو بمخطط فريد إذ يحوي على مزارين اطلق فنقبوا الموقع على احدهما اسم المزار المنفرد (Free Stauding Shrine) وهو بمخطط من نوع المدخل القائم على محور مستقيم مع كوة تمثال الآله . و مزار اخر كبير من النوع المعروف بالمدخل ذو المحور المنكسر (شكل ٢) .

أما المزار المنفرد فيتميز بكونه أشبه بمعبد صغير داخل حرم المعبد الكبير اذ يحيط به من جهاته الاربع ممر خلفي يعزله عن بقية أقسام المعبد ، أما جدران هذا المزار فيزينها من الخارج حلية من الطلعات والدخلات البسيطة الضحلة وهي ميزة عمارية معروفة في العمائر الدينية العراقية القديمة . وللمزار مدخل فتح وسط ضلعه القصير ، الجنوبي الغربي ، بعرض يقرب من ٤٥ سم يؤدي الى

غرفة ما بين أو مقدمة خلوة أُقيمت فيها مصطبة تقديم دائرية . ولهذه الغرفة مدخل آخر بعرض ١,٤٥ مترا قبالة المدخل الرئيسي يفضي الى الحجرة المقدسة أو قدس الاقداس وهي مربعة تقريبا طول ضلعها قرابة ٣,٣٠ مترا شُيّد لصق ضلعها المقابل للمدخل مذبح (altar) مضلع كبير .

أما المزار الكبير فيقع الى الجنوب من سابقه يوصل اليه عبر مدخل يقع عند الضلع الشمالي الغربي و هو من نوع ذو المدخل المنكسر فتح مدخلها عند الضلع الشمالي الغربي قرب الزاوية الغربية أما المذبح فيقع وسط الضلع القصير الشمالي الشرقي . و قد أنتشر داخل الغرفة العديد من مناضد تقديم القرابين الدائرية الشكل والمشيدة باللبن . ومما تجدر الاشارة اليه هو العثور على كميات كبيرة من اللقى الأثرية والتماثيل الحجرية كانت مدفونة تحت أرضية هذه الغرفة و بخاصة لصق الضلع المقابل للمذبح كان قسم منها يحوي على كتابات مسمارية تشير الى أنها مهداة الى الآلهة أي – أنّا معبدها هذا [٤] .

وفي النهايات الجنوبية للمعبد توزعت بعض الغرف التي كانت تستخدم على الاغلب لأغراض دينية عثر في أحدهما على حوض للماء مُشيّد من الآجر ومغلف بالقار ربما أستخدم للغسل والتطهير ، وفي الغرفة الاخرى عُثر على موقد بيضوي الشكل كما وُجد ان واحدة من تلك الغرف قد زينت جدرانها برسومات ملونة عُثر عليها ساقطة على أرضية الغرفة يبدو من بقاياها أنها كانت تحتوي على رسومات تتألف من قسمين او خانتين فيها بقايا أشكال هندسية مفصولة بعضها عن بعض بأفريز من أشكال معينة [٥] .

دراسة وتحليل مرافق المعبد :

(١) الساحة الداخلية ذات السلم :

كما ذكرنا سابقا فان أرضية هذه الساحة كانت بمستوى أعلى من سابقتها حيث يُرقى اليها عبر سلم مؤلف من عدة درجات ، وهذه الظاهرة أي تشييد المعبد بمستويات متباينة يرتفع بعضها عن البعض حسب أهميتها وقدسيتها ، كانت من السمات العمارية الدينية الشائعة في هذا العصر فبغض النظر عن كون المعبد

برمته مكانا مقدسا يشيد بمستوى أعلى من باقي الابنية الدنيوية المحيطة به فقد وعى مخططو المباني الدينية الى أهمية كل قسم من أقسامه وشيدوها بمستويات متباينة يرتفع بعضها فوق بعض كل حسب أهميته فكانت الاقسام الخدمية أوطأها يليها الاقسام الملحقة بالغرف المقدسة وأخيرا شُيّدت الخلوات أو الغرف الاكثر قدسية بمستوى أعلى من باقي أقسام المعبد مما يكسبها مهابة وجلالا يليق بالمعبود القاطن فيها ، ويبدو لنا أستنادا الى ما عثر عليه من معابد ان هذه الظاهرة قد شاعت في عصر فجر السلالات ، العصر الذي تبلورت فيه الحضارة العراقية القديمة وبرزت الدينة بفعاليتها ومظاهرها المدنية المختلفة وبتطور نظام الحكم ومؤسسات الحاكمة بترتيبه الهرمي الذي يقف على رأسه الامير أو الملك يليه رجال الحاشية و المقربين ثم بقية موظفي الدولة الكبار والصغار ، و كان من مستلزمات ومظاهر الحكم الجديدة هو اتخاذ القصور الفارهة بتقسيماتها الى أجنحة ووحدات سكنية وأدارية وخدمية وغرف أستقبال (غرف العرش) ومحاولة تطبيق هذا النموذج الدنيوي على المباني الدينية على أساس أن المعبد ما هو الا بيت لسكن و أقامة الآله ، ويكاد ان يتشابه مع بيوت السكن الاعتيادية الاخرى الا انه لأهميته يجب أن لا يقل سعة و تنظيما و رفاهية من أي مبنى دنيوي آخر مع الأخذ بنظر الاعتبار التقدم المدني في البناء والزخرفة وفي مقدار ثراء المدينة نفسها وأهمية آلهها ومكانته بين بقية الالهة .

لقد أضحى المعبد ومنذ عصر فجر السلالات بالتجديد عبارة عن مجمع ديني يضم اقساما دينية وأخرى خدمية ومشاغل ومطابخ ومخازن مختلفة كما أصبح يضم أقساما ادارية لإدارة شؤون المعبد و شؤون كهنته الذين بدأ نفوذهم وثرائهم يزداد يوما بعد يوم ، و يبدو مما عثر عليه في معبد خفاجي على سبيل المثال ان المعبد أصبح يضم قسما لسكن الكهنة لفئة خاصة منهم [٦] .

وبسبب تعدد مرافق المعبد وإضافة أجنحة خدمية وادارية اليه ، ولغرض ابراز مكانة قسم من اقسامه وإضفاء نوع من الهيبة والقدسية عليها كل حسب أهميته ، فأن أمثل حل هو تشييد مرافقه على مستويات متباينة كما بينا ذلك سابقا ،

أو على الاقل فصل الاقسام الأكثر قدسية عن باقي مرافق المعبد وتشييدها في أماكن خاصة في المعبد بحيث يمكن السيطرة على المنافذ المؤدية اليها ومنع دخولها الا بمشئه الكهنة وفي مناسبات معلومة .

ويبدو ان شيوع هذه الظاهرة العمارية في تلك الفترة والفترات اللاحقة لها خير دليل على اصابة الهدف الذي كانوا يتوخونه ، وكان تأثيره كبيرا على عامة المستوطنين والمتعبدين وأضفت نوعا من الخصوصية على أقسام المعبد زادته هيبة وتبجيلا . ونعتقد ان تلك المهابة قد القت بظلالها على الكهنة والقائمين على شؤونه وهي في حقيقة الامر ما كانوا يسعون اليه بالدرجة الاساس ، مثلما هو هدف كل الكهنة ورجال الدين في الاديان الوضعية بغية زيادة نفوذهم وتقوية مركزهم الديني ـ الاجتماعي وتنمية ثرواتهم عن طريق الهدايا والنذور والقرابين المقدمة الى المعبد ، هذا بالاضافة الى ما كانوا يقومون به من فعاليات دينية ـ اجتماعية لا يمكن حصرها تتغلغل في جوانب متعددة من نشاطات المستوطنين وفعالياتهم .

وأقدم الامثلة على تشييد المعابد بمستوى أعلى من باقي الابنية المحيطة بها واقامتها فوق مصاطب اصطناعية يمكن ارجاعها الى عصر العبيد الثالث في مدينة اريدو وهو المعروف بمعبد الطبقة الحادية عشرة . أما معبد الطبقة السابقة من عصر العبيد الرابع فهو أقدم معبد له سلم يؤدي صعودا الى المدخل الرئيسي له وسط واجهته الجنوبية الشرقية [٧] . ومنذ تلك الفترة اصبحت ظاهرة الدخول الى المعبد عبر مدخل يتقدمه سلم من الظواهر الشائعة في عمارة المباني الدينية في العراق القديم .

أما تشييد أقسام المعبد ومرافقة بمستويات مختلفة فانه من الممكن ترجيح بداياتها الى عصر الوركاء الطبقة الخامسة في مجمع معابد حارة اي - أنّا ومنها مبنى مصطبة الاعمدة الذي شُيّد بمستوى أعلى من باقي المباني المحيطة به في داخل الحرم المقدس ذاته [٨] . الا ان البدايات الحقيقية لهذه الظاهرة يمكن ارجاعها بكل تأكيد الى عصر فجر السلالات ويمكن ملاحظة ذلك في معبد سني

(ط ٦ - ١٠) في خفاجي وكذلك في معبد البيضوي في خفاجي ايضا ، وفيه توزعت مرافقه على ثلاثة مستويات متباينة ، أعلاها في القسم الجنوبي الغربي حيث الغرف المقدسة للمعبد [٩] ، و قد استمر هذا التقليد العماري بعد ذلك في مختلف العصور اللاحقة .

(٢) الساحة ذات الاعمدة :

تتوسط هذه الساحة مرافق المعبد تقريبا أقرب الى القسم الأكثر قدسية فيه . شُيّد قرب ضلعها الشمالي الغربي والجنوبي الشرقي أعمدة توزعت بواقع عمودين في كل جهة ، بُنيت الاعمدة من اللبن وملطت بملاط سميك . وكما ذكرنا فأننا نعتقد ان الاعمدة كانت تحمل سقفا مستويا ، يظلل هذين القسمين فقط من الساحة ، بينما تُرك وسطها مكشوفا لاداء بعض الطقوس أو لتوفير انارة مناسبة لبقية مرافق المعبد وهي واحدة من أهم استخدامات الساحات المكشوفة في العمارة العراقية القديمة .

لم يكن استخدام الاعمدة في العمارة العراقية القديمة الدينية والدنيوية في أغلب المراحل التاريخية في العراق القديم وصولا الى العصر البابلي الحديث ، حالة شائعة أو ظاهرة بارزة من مظاهر العمارية ، بل كان استخدامها حالة شاذة ان صح التعبير ، وعلى نطاق ضيق على الاقل وصولا الى عصر فجر السلالات مدار بحثنا هذا .

أما عن بدايات استخدام الاعمدة في العمارة الطبقية القديمة فان أقدم ما عُثر عليه من بقايا قواعد كانت تحمل أعمدة أو ركائز لاسناد السقف ترجع الى العصر الحجري الحديث من نهايات الالف الثامن و بدايات الالف السابع ق.م في موقع نمريك . وقد كشف في الادوار الاقدم في بعض مباني هذا الموقع (نهاية الالف الثامن عشر ق. م) . ان المباني كانت بمخططات دائرته وكان السقف يستند على الاغلب على أربعة ركائز خشبية ثبتت داخل حفر بسيطة في أرضية المبنى . أما في الادوار الاحدث (الالف السابع ق. م) فقد توسطت المبنى أربعة قواعد توزعت بشكل مربع على أبعاد متساوية في الحجم والشكل في كل مبنى ، وكان

بعض تلك القواعد وبخاصة في المبنى رقم ٩٦ بطول ١٣٠ - ١٥٠ سم وعرض ٥٢ - ٧٠ وسمك ٨٠ سم مصنوعة من حجر اللايمستون الابيض سويت أسطحها بقليل من العناية (انظر الشكل رقم ٦) وفي مبنى آخر المعلم بالرقم ٧٥ كانت قواعد الاعمدة بطول ١,٥ م وعرض ٧٥ سم وسمك ٦٥ سم . لقد ثبتت تلك القواعد داخل حفر عميقة في أرضية البناء ، ومما يؤسف له انه لم يبق من تلك الاعمدة سوى قواعدها تلك و يعتقد انها كانت تحمل أعمدة بسيطة أو ركائز من الخشب استخدمت لحمل سقف المبنى [١٠] . و يبدو لنا ان استخدام الأعمدة أو الركائز لحمل السقف كان حالة نادرة جدا في تلك الفترة لم يكشف عنه مثيل لها في أي موقع آخر من ذلك العصر أو العصور اللاحقة له لغاية العصر الشبيه بالكتابي ، عصر بدايات الحياة المدينة ، وبشكل خاص ايضا في مدينة الوركاء في حارة اي - أنا طبقة (4 B) أي بحدود ٣٥٠٠ ق.م حيث توزعت المعابد في تلك الحارة بشكل فريد حول ساحتين رئيسيتين وكان من ضمن المباني الدينية مصطبة اصطناعية (الشمالية الغربية) أقيم فيها مبنى اندثرت معظم أقسامه وبقي منه صالة توزع فيها صفان من الأعمدة المشيدة من اللبن في كل صف أربعة أعمدة مدورة بقطر ٢,٦٢ و شُيّد على جانبي الصالة أنصاف أعمدة مدمجة بواقع اثنين في كل جانب استخدمت هذه الاعمدة لرفع سقف مستوى كبير (انظر شكل رقم ٤) [١١] . و مما زاد في جمالية هذه الاعمدة تزينها بمخاريط فخارية ملونة بالاسود والابيض مشكلة زخارف هندسية قوامها مثلثات صغيرة مما جعل شكل الاعمدة يحاكي أشكال جذوع النخيل المنتشرة بكثرة في المنطقة . ويبدو ان مبنى الاعمدة بقي قيد الاستخدام مع بعض الاضافات والتجديدات الى الدور الاخر (4 A) بعدها حلّ دمار كبير جاء على معظم مباني تلك الطبقة ولم يشيد مثيلا لها في الادوار اللاحقة . ويعتقد الاستاذ لتزن منقب الموقع ان سبب ذلك الدمار يعود الى تحولات في الافكار والمعتقدات الدينية اتسمت بالقوة والعنف وأدت الى تبدل في مراكز بعض الالهة ومنها الالهة أي - انّا بالذات [١٢] . هذا ولم يعثر على مباني أخرى ذات أعمدة من ذلك العصر لغاية عصر فجر السلالات وفي هذه

المرحلة ايضا كان استخدام العمود في البناء حالة نادرة لم نجد فيما نُشر من نتائج تنقيبات المدن العراقية القديمة ما يشير الى استخدامها الا في حالتين شخصت الاولى في المبنى المعروف باسم القصر آفي كيش والثاني معبد أي – أنّا في نفر مدار بحثنا هذا . اما في القصر آفي كيش (انظر الشكل رقم ٧) فقد استخدمت الاعمدة في المبنى الملحق بالقصر حيث توزعت في احدى صالاته الواسعة صف في أربعة أعمدة اسطوانية مُشيّدة باللبن كان الغرض منها على الاغلب لحمل ركائز امتدت على عرض الصالة حملت فوقها سقفا سنويا . كذلك عثر على صف آخر من الاعمدة عند صالة أُخرى في المبنى يطل على ساحة تمتد أمام المدخل الرئيسي للقصر ، كان الغرض منها لحمل السقف ايضا [١٣] .

ويبدو لنا بعد استعراض هذه الامثلة وعرض أهم ما عثر عليه من نماذجها وصولا الى عصر فجر السلالات ان العمود واستخدامه في العمارة العراقية القديمة الدينة والدنيوية كان حالة نادرة و لم يوليه المعمار العراقي اهتماما كبيرا ، وكان الغرض منه كما نعتقد غرضا نفعيا انشائيا بحتا وليس لأغراض جمالية ولم يكن يوحي أو يرمز للعراقيين القدماء بأي عقيدة أو فكر معماري خاص كما هو الحال في العمائر الكلاسيكية من يونانية ورومانية ، تلك الحضارات التي أبدعت وتفننت في بناء الاعمدة بأشكال ونسب معلومة وتوزعت حول المباني الدينية والدنيوية أو في داخل قاعاتها واروقتها بأساليب وطرق خاصة أملتها عقائدهم الدينية وأفكارهم الخاصة بفلسفة الجمال ونسبها الذهنية وتكويناتها الزخرفية . ويبو لنا ان اضطرار المعمار العراقي القديم الى ان استخدام مادة اللبن في البناء ، وبخاصة المباني الدينية وهي مادة غير ملائمة لبناء الاعمدة و التفنن في انشائها وكذلك نعتقد ان تطرف المناخ صيفا وشتاءا وعدم ملائمة أجواء المنطقة لبناء القاعات الكبيرة التي تحمل سقوفها الاعمدة من الاسباب التي دفعت بالمعماريين العراقيين الى بناء الغرف والقاعات الصغيرة الضيقة التي يسهل تسقيفها بالخشب المتوفر محليا أو ببعض الاخشاب المستوردة والتي تتناسب وتتلائم مع الظروف الجوية وتلبي في الوقت نفسه حاجات المستوطنين و رغباتهم و بما ينسجم مع

نفسيتهم وأفكارهم وأسلوبهم في التعامل مع مستجدات حياتهم اليومية المعاشية والدينية .

الرسومات الجدارية :

اهتم الانسان منذ عصور سحيقة بتزيين أماكن سكنه وتجميلها وبذل في ذلك محاولات شتى كان من أهمها وأقدمها تزيين جدران الكهوف برسومات جدارية ملونة غاية في الدقة والبراعة والجمال . وبغض النظر عن الأراء التي قيلت حول أسباب أتخاذ تلك الرسومات يبقى شغف الانسان بحب الجمال ومحاولة تقليد الطبيعة واضفاء البهجة على مقراته السكنية واحدة من الدوافع التي لا يمكن التغاضي عنها . وفي بلاد وادي الرافدين فان أقدم الشواهد على تزيين المباني وزخرفتها ترجع الى بدايات العصر الحجري الحديث من موقع نمريك وفيه وجد ان أحدى المباني (مبنى رقم ٢) متزين من الداخل بزخارف قوامها أشرطة ملونة بألوان مثل الأحمر والأسود والأصفر وكانت الأجزاء السفلى من الجدار قرب الارضية مطلية باللون الأحمر فقط [١٤] . ومما تجدر الاشارة اليه هو العثور على عدد من الهياكل العظيمة مدفونة أسفل أرضية المبنى تعود لاشخاص بالغين طوق عنق أحدهما بقلادة من أحجار ملونة ، وقد عثر فوق الارضية على دمية حجرية لطائر ربما كان يمثل نسرا أو عقابا . و يبدو ان تخطيط المبنى بشكله المضلع الفريد وتكوين جدرانه ودفن بعض الموتى أسفل جدرانه دلائل تشير الى استخدام المبنى لاغراض أخرى غير السكن . أما أقدم نماذج الرسومات الجدارية فانها ترجع الى بدايات عصر حسونة من موقع أم الدباغية (الذي يقع على بعد ١٥ كم غرب الحضر) في الطبقة الثالثة من حيث كانت تزين الواجهات الداخلية لبعض الغرف المكشوفة في الموقع (انظر شكل رقم ٥) ، لقد نفذت تلك الرسومات فوق ملاط جصي معتنى به شكل ارضية مستوية صالحة للرسم . و قد استخدم الرسام اللونين الأحمر (المغرة) و الأسود في تنفيذ رسوماته التي تبدو من بقاياها انها كانت تصور مشاهد مالوفة لدى سكان المستوطن ، و فيها مشاهد لصيد الحصان العراقي (الاونكر) الذي عثر على بقايا عظامه الكثيرة في ثنايا الموقع ، وهناك

رسومات أخرى عبارة عن خطوط متموجة الواحدة فوق الأخرى يعتقد انها ترمز الى عقبان وطيور جارحة تنقض على بقايا الحيوانات الميتة وعلى النفايات التي القيت حول الموقع [١٥] . ومهما يكن الغرض من تلك الرسومات ، ان كانت للزينة او لغرض ديني سحري ، فانها تعد بحق واحدة من أقدم النماذج الفنية النادرة في تلك المرحلة .

وتمر عصور طويلة لا نجد فيها أثرا لرسومات أخرى لا يمكن ان نعزي سببه الى عزوف المستوطنيين تزيين مقراتهم السكنية والخدمية ولكن يبدو ان السبب الرئيسي يكمن في طبيعة تلك الرسومات الي يسرع اليها التلف بعد مدة يسيرة من رسمها أثناء عمليات التنقيب ، ومن نماذج الرسومات الجدارية التي كانت تزين المباني الدينية أو بالأحرى بعض المرافق الخاصة في المعابد تشير الى ما عثر عليه في موقع تبة كورا الطبقة ١٦ التي تعود الى عصر العبيد حيث عثر على مبنى بمخطط ثلاثي الأجزاء وجد في أحدى غرفة بقايا رسومات جدارية قوامها صفوف من معينات متصلة بعضها ببعض ملونة باللونين الأسود والأحمر على التناوب فوق أرضية بيضاء اللون [١٦] . ومن الطبقة ١٣ من الموقع ذاته وجد في أحد الامعابد وهو المعبد الوسطي . ان الواجهات الداخلية للغرفة المقدسة Cella وجدران أثنين من الغرف القريبة منها كانت مطلية بطلاء أحمر ارجواني [١٧] .

ومن عصر الوركاء ومن موقع قالينج أغانشير الى معبد صغير شُيّد في القسم الغربي من الطبقة الثالثة للموقع كانت الغرفة المقدسة مطلية بطلاء أبيض اللون وزُينت أسافل جدرانها بأفريز من زخرفة هندسية قوامها معينات كبيرة متعاقبة وأشكال هندسية أخرى غير واضحة المعالم ملونة باللونين الأسود والأحمر على أرضية بيضاء [١٨] .

وفي هذه المرحلة أي عصر الوركاء من مدينة الوركاء فقد زينت واجهات المعابد والمباني الدينية بمخاريط حجرية وفخارية ملونة بالأحمر والأسود والأبيض والأزرق الغامق والاخضر الضارب الى الصفرة ثبتت في الملاط الطيني والجبسي

للجدران بأسلوب خاص ولوضعيات مختلفة انتجت في النهاية زخارف هندسية قوامها مثلثات صغيرة أو معينات متعاقبة أو خطوط منكسرة [١٩] . ويبدو ان مصممي المعابد قد اكتفوا بذلك النوع من الزخارف البديعة عوضا عن الرسومات الملونة .

ومن عصر جمدة نصر نشير الى معبد العين في تل براك قرب الحدود العراقية السورية ، وفيه تم تزيين المعبد بمخاريط فخارية و حجرية ملونة بعضها كأن يشكل أزهار ذات ثمانية أو تسعة بتلات [٢٠] . وهي في عمومها كانت تقليدا لمعبد الوركاء ولكن بمستوى فني وتقني أقل جودة .

أما أجمل نماذج الرسومات الجدارية لتلك المرحلة فهي من معبد موقع العقير الذي أسماه المنقبون باسم المعبد المصبوغ . مما تبقى من جدران المعبد وجد أن واجهاته الداخلية كانت مزينة بزخارف هندسية بألوان مائية مثل الأحمر والأسود والبرتقالي والأصفر على أرضية بيضاء اللون وكان قوام تلك الزخارف معينات ومثلثات ومربعات ربما كانت تقليدا لزخارف المخاريط الحجرية التي شاعت في عصر الوركاء ، يعلو هذه المشاهد الهندسية رسومات لأشكال بشرية وحيوانات لم يبق منها الا أجزاء صغيرة فقط . أما مذبح المعبد فقد زينت جدرانه برسومات تشبه واجهة معبد ، كما زُينت بزخارف هندسية مختلفة وقد وجدت صورتين لفهدين رابضين رسم احداهما عند الجانب الايمن من المذبح ورسم الثاني على الجهة الصغيرة منه وكان اسلوب رسمها أقرب الى الواقعي . صور احد الفهدين وهو رابض على قائمتيه الخلفيتين أما الآخر فقد صور وهو ممدد على بطنه باسطا ذراعيه الى أمام . وقد نفذت تلك الرسومات بألوان مائية باللونين الأسود والأحمر [٢١] (انظر شكل رقم ٨) .

أما معبد أي – أنّا مدار بحثنا هذا فيبدو ومما عثرعليه من نماذج قليلة في غرفة تقع الى الجنوب من الغرف المقدسة التي عرضنا لها سابقا ، وان المعبد والاجزاء الأكثر قدسية فيه كانت على الأغلب مزينة هي الأخرى برسومات

جدارية ملونة على غرار كثير من المعابد العراقية القديمة في الفترة السابقة والفترة المعاصرة لها .

ويبدو أيضا ان الزخارف الهندسية ، ان كانت رسومات او مخاريط ملونة ، والتي قوامها مثلثات أو خطوط منكسرة أو معينات ، كانت هي المفضلة في تزيين المباني الدينية ، وان الألوان السائدة آنذاك منذ أقدم العصور كانت اللون الأحمر والأسود ، و هي ألوان يسهل استخراجهامن مصادر طبيعية متوفرة وهي تعطي ظلالا وأطيافا متعددة بالاضافة الى اللونين الأحمر والأسود تُلفت النظر وتبهر الناظر بتوهجها وسطوعها وبخاصة ان كانت منفذة على أرضية بيضاء يعطيها تجسيما و بروزا اكبر من الواقع .

وعلى العموم فاننا نعتقد ان تزيين المباني الدينية بأي نوع من أنواع الزخارف لم يكن الهدف الأساس منه إضافة مسحة جمالية على المبنى فحسب ، بل كان الاصل فيها التأثير على المتعبدين الذين يقفون مشدوهين أمام سعة المعبد (بيت الآله) وتعدد مرافقه وما بُذل في تزيينه وزخرفته المبلغ فيها ليزدادوا تبجيلا وخوفا من ذلك الآله ، وليزدادوا تعلقا به ، وهي ظاهرة يمكن تشخيصها في جميع الأديان الوضعية التي تعتمد في تثبيت و نشر عقائدها على التأثير الحسي المباشر على المتعبدين أكثر من اعتمادها على الاقناع العقلي و الروحي لهم .

الغرف المقدسة :

كما ذكرنا سابقا فان الأكثر قدسية يقع في النهاية الجنوبية الغربية للمعبد وهي تحوي على مزارين منفصلين ، ومما تجدر الاشارة اليه ان المعابد المتعددة المزارات أضحت حالة شائعة في عصر فجر السلالات و منها معبد آبو في تل اسمر الذي يحوي على ثلاثة مزارات ايضا ، ومعبد أسين وننتو في خفاجي (ط ١٠) اللذان يحويان على مزارني ايضا [٢٢] .

لقد عبد مع الآله الرئيسي آلهه ثانوية أخرى مثل زوجة الآله او أحد أبنائه أو كبير وزرائه ومساعديه . و يبدو لنا ان تطور النظم السياسية آنذاك وتبلور مفهوم الملوكية وما جرّ ذلك من إعلاء شأن العائلة المالكة وكبار رجال الحاشية

كان له أثر كبير على المفاهيم والمعتقدات الدينية ومما يرد في هذا الشأن في اصلاحات الامير اوروانم كينا انه اصبح لزوجة الامير نفوذ كنفوذ زوجها وأصبح لها أراضي خاصة بها والابنائها وأصبحنا نرى في مشاهد الولائم والحفلات الدينية المنفذة على الالواح الحجرية الحاكم تقابله زوجته جالسة على عرشها وهما يحتفلان سوية ، او مشهد الامير وهو يساهم ببناء معبد زوجته وأبنائه وغيرها من المشاهد التي توضح بلا شك سعة وتنامي نفوذ وهيمنة ومكانة العائلة المالكة بأجمعها وليس شخصية الحاكم بمفرده و يبدو ان تلك المفاهيم السياسية ــ الاجتماعية الجديدة قد انعكست على التعاليم والافكار الدينية .

كذلك فان من معتقدات العراقيين القدماء إيمانهم بان الحكومة الارضية ماهي الا نموذج مصغر لمجمع الآلهة و تنظيماتها ، لذلك كان لا بد من تنصيب المساعدين والوزراء لكبار الآلهة بالاضافة الى تخصيص زوجات وأبناء لهم تشبيها لهم بالبشر ، وهي أحدى خصائص الديانة العراقية القديمة ، وأصبح لهذه الآلهة أتباع من الآلهة الثانوية لا تقل شأنا وأهمية عن الآله الرئيسي ، مما اضطرهم لبناء مزارات خاصة بهم في معبد الآله الرئيسي أو أحيانا في معابد اخرى خاصة بهم .

أما مخطط المزار الاول الذي اطلق عليه المنقبون اسم المزار المنفرد (انظر شكل رقم ٢) فهو كان كما ذكرنا أشبه بمعبد صغير مُشَيد وسط المبنى وهو من نمط معبد المدخل ذو المحور المستقيم Straight - Axis Approach وهي حالة فريدة من نوعها في معابد عصر فجر السلالات حيث كانت الغرف المقدسة في المعابد مقامة على وفق مخطط معبد المدخل ذو المحور المنكسر Bent - Axis Approach و الذي سنتكلم عنه لاحقا . وقوام هذا المخطط ان المدخل الخارجي للمعبد ومدخل غرفة المابين أو الغرفة المقدسة والمحراب الذي يوضع عنده تمثال الآله كلها تقع على محور مستقيم واحد . و يبدو ان هذا المخطط قد أخذ شكله منذ الطبقة السابقة وهي الطبقة السابعة . وفي تلك الفترة كان الجدار الفاصل بين غرفة المابين و الغرفة المقدسة عبارة عن حاجز غير سميك بارتفاع

يتراوح ٤٥ – ٧٠ سم [٢٤] . أما في الطبقة الثامنة فقد أصبح المزار أكبر حجما وأكثر اتقانا و أضحى الجدار الفاصل بين الغرفتين اكثر سمكا و تزينه حلية قوامها دخله صغيرة مزدوجة ، وهذا ان دلّ على شيء فانها يدل على ان هذا النمط من التصميم لم ينشأ اعتباطا بل عن وعي من المخططين لمثل هذا التصميم الفريد في تلك المرحلة والذي يختلف عن جميع مخططات المعابد المقامة آنذاك .

ولا يمكن تقديم تفسير واضح في اختيار هذا التصميم الا اذا ارادوا من خلاله اعطاء خصوصية وأهمية للآله الذي يعبد فيه تميزه عن الآله او الآلهه الاخرى التي تُعبد في المزار الثاني .

كذلك من غير المستبعد ان نفترض انه في هذا المزار كانت تقام شعائر وطقوس خاصة لفئة اجتماعية أو مجموعة سكانية ما كانت تقطن في مدينة نفر أو في المناطق و المدن المجاورة لها . ومن الجدير بالذكر ان مخطط المعبد ذو المدخل المقام على محور مستقيم مع الغرفة المقدسة قد ظهر في العصر السومري الحديثة (سلالة أور الثالثة) في معبد أنكي في مدينة أور [٢٥] و معبد شوسين ومعبد قصر اتوريا في اشنونا [٢٦] ثم طغى هذا التصميم وتوالى استخدامه في العصور اللاحقة ابتداء من العصر البابلي القديم والى نهاية العصر البابلي الحديث مع بعض التغيرات الطفيفة و بخاصة في مناطق وسط وجنوب العراق باستثناء المعابد الاشورية بتخطيطها الخاص .

أما المزار الثاني فهو كما ذكرنا من نوع المدخل ذو المحور المنكسر ، وقوام هذا النوع غرفة كبيرة يلحق او لا يلحق بها غرفة ما بين لها مدخل عند ضلعها الطويل قرب زاوية من زوايا الغرفة و يقع المذبح وتمثال الآله لصق أحد ضلعيها الصغيرين البعيد عن المدخل وفي هذا النوع يتوجب على الداخل ان يستدير بزاوية ٩٠ نحو اليسار لكي يتواجه مع تمثال الآله .

ومما تجدر الاشارة اليه ان المعابد في العصور السابقة ومنها عصر العبيد والوركاء وجمدة نصر كانت بمخططات خاصة عرفت لدى الباحثين باسم مخطط ثلاثي الأجزاء وتمثل فيه الغرفة المقدسة الجزء الاوسط من المعبد بشكل غرفة

طويلة او على هيئة صليب او بشكل حرف (I) اللاتيني . اما النمط المعروف باسم المدخل – ذو المحور المنكسر فهو ابتكار عماري ظهر في عصر فجر السلالات و شاع في أغلب ، ان لم نقل جميع ، معابد ذلك العصر ومنها على سبيل المثال معابد سني و ننتو في خفاجي بجميع أدوارها ، ومعبد آبو في تل اسمر و معبد شاره في تل اجرب .

ويمكن القول بشيء من التحفظ ان هذا النمط بقي متداولا ومعروفا في العصر الاكدي ايضا و لدينا مثال واحد على ذلك و هو معبد مدينة نوزي (يورغان تبة) اذ اخفقت التقنيات في العثور على معابد ترجع الى ذلك العصر لأسباب كثيرة معروفة . و كما ذكرنا سابقا فقد ترك استخدام هذا النوع من المخططات ابتداء منذ عصر سلالة اور الثالثة و شاع بدلا منه النوع الآخر بمداخله المقامة على محور مستقيم واحد .

المصادر :

(1) Hansen , D and Dales ,G. (The Temple of Inanna Queen of Heaven At Nippur) , Archaeology 1962 vol . 15 no . 2 p.75 .

(2) Ibid , p . 75 .

(٣) حول مخطط المعبد و تقنياته انظر المصدر السابق و تفصيلات أعمال التنقيبات و المعاثر في المصدر .

Haines , R . (Where a Goddess of Love and War Was Worishipped 4000 Year ago) , the Illustrated London News August 1956 P . 266 ff .

Haines , (Further Excuvations of the Temple of Inanna Goddess of Love and War), the Illustrated London News September , 1958 ,P.386ff.

Grawford , V . (Nippur , the Holy City) , Archaeology no .2 Vol .12 1954 , P .79 ff .

(4) Hansen , D .Op . Cit . P .79 .

(5) Ibid . P.79 .

(٦) حول تنقيبات معبد خفاجي انظر :

Delougaz , P . the Temple Oval at Khafajah Oip 43 U.S.A 1940 .

(7) Safar , F . and Mustafa , M . and Lioyd , S , Eridu Baghdad 1981 P.88

(8) Heinrich , E.Die Uruk . Schicht IV, UVB, IV 1932 , P. 12 ff .

(9) Delougaz , P. Op. Cit. P. 18 ff .

Deiougaz , P . and Lioud , S. Pre - Sargonid Temles in the Diyula Region Oip U.S.A 1942 P. 40 ff .

(10)Kozlowski , S. and Others . (Preliminary Report on the third Season of Polish Excuvations At Nemriha) Summer 1989 - 1990 PP.20 - 21. Kozlowski , S . (ed) Nemrik 9 Warszawa 1990 P . 46 ff .
(11) Lenzen , H , J., E - Anna district After Excavations inithe Winter of 1958 - 1959 .Sumer , 1960 , P. 7 .
(12) Perkins , A. L. , The Comparative Archeology of Early Mesopotamia, U.S.A. , 1963 , PP. 122 .
(13) Mackay , E. , A Sumerian Palace and the (A) Cemetry at Kish , Mesopotamian , Part II , U.S.A. , 1929 , PP. 95 - 99 .
(14) Kozlowski, S. and others , Fourth Report on the Excavations of the Prepottery Neolithic Site Nemrik , Sumer , 1989 - 1970 , P. 27 .
(15) Kirkbride , D. Umm Dabaghiyah Fourth Preliminary Report , IRAQ , Vol. 37 , Part (1) , 1975 , PP. 7 - 9 .
(16) Perkins , A. L. , Op. Cit. , P. 67 .
(17) Tobler , A. , Excavations at Tepe Gawra , Vol. 2 , U.S.A. , 1950 , P.33.
(١٨) ابو الصوف ، بهنام ، التنقيب في تل قالينج آغا ، سومر ، مجلد ٢٥ ، ١٩٦٩ .
(١٩) لنزن ، هاينرش ، العمارة في منطقة أي - أنا في عصر الطبقة الرابعة بمدينة الوركاء ، ترجمة عبد الرزاق كامل ، مجلة سومر ، مجلد ٤٦ ، ١٩٩١ ، ص ٣٥ - ٣٧ .
(20) Mallowan , M. , Excavations at Brak and Chagar Bazar , IRAQ , Vol. 9, 1947, P. 32 .
(21) Lioyd, S. and Safar , F. , Tell Uqair , JNES , Vol. 2 , 1943 , P. 143 .
سفر ، فؤاد ، حفريات تل العقير ، سومر ، مجلد (١) ، ١٩٤٥ ، ص ٢٣ - ٢٦ .
(٢٢) حول تلك المعابد أنظر :
Lloyd, S. and Delougaz, P. , Pre- Sargonic Temples in the Diyala Region , OIP. 58, 1942 , U.S.A. , P. 20 ff .
(23) Hansen , D. and Dales, G. , Op. Cit. , P. 79 .
(24) Haines , R. , 1958 , Op. Cit. , P. 386 .
(25) Woolley , L. and Mallowan , M. , The Old Babylonian Period UE , Vol. 7 , London , 1976, P. 64 .
(26) Lloyd , S. and Frankfort , H. , The Gimilsin Temple and the Palace of the Rulers at Tell Asmer , OIP.43 , U.S.A. , 1942 , P. 20 ff